الأناوية أو عشق الأنا

كل الخطيئة ان يعبد الانسان نفسه، ألا يشعر بضرورة التعامل الحقيقي لان الآخر ليس آخر. تراه جسدياً ولا تراه فرادة. انت تبصره فتظن انك موجده في حين انك، في الحقيقة، تتلقاه. تأتي به اليك لتطوعه. هكذا تفهم انك تعلمه وقت سقراط قال انك تستخرج منه معرفة هي فيه.

هكذا في "طبائع الاستبداد" القائمة كلها على الخوف وهذا يضطرها الى كم الافواه. فإذا ظن الحاكم نفسه مكتملاً بذاته فهو موقن انه يعرف كل شيء ويعرف صالح "رعاياه". والرعية هي الخراف العجماء. وفي الكتاب المقدس ان الرب وحده هو الراعي لكونه محباً لرعيته ويبذل نفسه عنها.

هذه الطبائع قائمة في غير مكان، في العائلة، في التوظيف، حيث الوالد يلغي الولد او رب العمل يحذف العامل. غير ان المؤسسات فرصة تكشف ارادة الالغاء اما الالغاء نفسه ففي الذات التي لا تحس ان الآخر ذات اي كائن قائم بنفسه ويحتاج الى المحبوبية ليحيا بها.

نحن نحيا في شركة. كل منا يقرع على باب قلب ليستقبله وينوجد فيه. هذا في حالة الشغف الكبير. غير اننا في الراهن اليوم نقرع على باب قلوب كثيرة التماساً للدفء شرطاً لفهمنا هذه القلوب وفهمها لنا. انت مفتوح اذاً انت موجود لان بدء الموجودية ان تحس بطراوتك، لمعطوبية فيك لا يشفيها الا اذا تدفقت طراوتك على نفوس الناس. غير هذا جفاف ذهن وجفاف عاطفة وهذا هو انتحار كيانك الداخلي او يكون قد نشأ فيك نشوءاً هزيلاً وليس لك من تعزية. اذ ذاك ليس لك قدرة على العطاء ولا قدرة على الاخذ ولا تتقبل من احد خطاباً على ابسط ما يكون عليه الخطاب. اقول هذا في العمق اذ قد تسمع ولا تصغي لاحتسابك ان الآخر لن يفيدك بشيء. تأخذ من هذه الكلمات ما يعينك على العيش اليومي ولكن هذا ليس تمازجاً ولا تلاقياً. كل ما تسمعه تأخذ منه لتبني به مشروعك لا مشروعاً مشتركاً بينك وبين من تلقاه.

المركّز كلياً على الانا لا يريد اشراف الله عليه. هو ملحد كيانياً ولو قام ببعض من طقوس، اذ يمكن الدين ان يكون لباسا اجتماعياً لنا باحساس قليل. لا ينقذ هذا الانسان المغلق الا شعوره بأن الرب يهيمن عليه او حاضنه بنعمته. اذا نزل عليه هذا الوعي ينفتح على الله، يرى نفسه هبة منه، فقيراً اليه. عند ذاك يكتشف ان الإنسان الآخر قد يكون هدية اليه، مخلوقاً لينتعشا معاً، ليحبا ويعملا معاً. ينفتح فمه ليخاطب وتنفتح يداه فتتشابك والايدي الاخرى لاتمام عمل يكون ثمرة التلاقي.

❦ ❦ ❦

قد لا ينفعه حبه لامرأة قبل نزول الله عليه. فقد علمني كوستي بندلي ان الحب حبان. حب عطاء وحب استيلاء. في هذا الاخير امرأتك قائمة لك ولست قائماً لها. كل شيء في حياة تبدو مشتركة مطوع لمنافعك ولو غطت الكلمات نرجسيتك. هذا يطبق على كل شيء. في زمان الاستعمار كنا نراه كله بغيضاً، بغيضا فلسفياً لان المستعمر تحت كلمات معسولة مسكوبة في نظريات مثالية كان يسعى لنفسه. طبعاً الاناوية الكبيرة تحتاج الى تأدب او الى تمسرح اذ قد يفهم الاناوي انه باعث الى تقزز لكن التقزز يؤذي الآخر ولا يؤذيه هو. القصة ليست في ان يكون هذا المريض متجهم الوجه، معقوداً لسانه فقد يكون له في الخطاب دربة الا ان القلب عنده ليس موصولاً باللسان. لذلك جعل من الحزن، اقامته. طبعاً له لذة التسلط وهي الى حين يهرب عنه الناس. له لذات وليس عنده فرح.

قلت الاناوي ملحد عملياً ولو بقي انساناً طقوسياً احياناً. السؤال هو ماذا في هذا الانسان قلنا فيه الانا فقط. ولكن ماذا في الانا؟ آباؤنا قالوا انه يحب، بشكل جنوني، جسده او حواسه. وفي هذا يقول مكسيموس المعترف: "بمقدار ما تعلق الانسان بالاشياء المحسوسة، من خلال حواسه كلها كان جهله لله يطغى عليه. وبمقدار ما كبله جهله لله كان يتعاطى استلذاذ الاشياء المادية التي عرفها بالخبرة ونتيجة لذلك كان يقوى عنده حب الذات. وكلما راعى حب الذات يخترع اساليب عديدة لينال اللذة ثمرة حب الذات وغايتها. هذا يقوده الى اجتناب الالم الذي يتبع اللذة حتماً. هذه الدائرة اللذة – الالم تنبع منها الشهوات".

لذلك كان المركز على اناه عاشق ذاته ضد ذاته. من حيث لا يدري لا يعرف ما ينفعه. المتضخمة اناه الى حد الجنون هذا انما يلغي وجوده الحقيقي، البسيط، الشفاف، الطريء وكأنه حيوان مفترس لعمقه الروحي، اظن ان مأساته السياسية انه لا يعرف انه مبغض نفسه وانه يدمرها اذا اغلقها دون الاله المحب والانسان المعد ليتقبل محبته. يتفتت لانه غير ملتحم بالآخرين الذين يشكل معهم جسدا واحدا. لذلك هو محكوم بالسطحية وبعدم التواصل اذ لا يرى الناس كلهم عيال الله او في لغة الإنجيل انهم ابناء الله وانهم بسبب خلقه وخلاصه اخوة.

الناس اذاً وسائل يستعملها الاناوي لاهداف استغلاله. هو لا يرضي احدا من اجل فرحه. يرضي نفسه لتعزيز مقامها او ملذاتها. نحن عندنا ان الانسان غاية لا وسيلة وان العلاقة تقوم بين شخصين او اكثر برعاية كل منهم الآخر من حيث هو قائم بذاته وله فكره واحاسيسه ومكانته ورفعته وليس من حيث انه اداة لي.

واذا آكل الآخر او شاربه او رافقه الى حين فيدخل هذا في حساب المنفعة ولا علاقة له بتغذية المودات او اقتباس المعرفة اي انه في كل هذا يؤكد نفسه ويصل الى مبتغاه في استعمال البشر استعمالا. واذا احس ان الآخر خصم له في تأكيد ذاته والسعي الى اللذة يطلق عليه مدافع العدوان ويصبح موضع غضبه الشديد. الانسان المركز على الانا لا يستطيع ان يصبح كائنا اليفا بل يثير في الاخرين حيوانيتهم وكراهيتهم. تصرفه الاساسي تصرف تقسيم فان البيعة البشرية التي تتجلى في الوحدة بين الناس تظهر منقسمة على نفسها وكانت ثمرة البشارة العيسوية ان "ليس يوناني ولا يهودي، لا ختان ولا غزلة، لا بربري ولا اسكيثي، لا عبد ولا حر" (كولوسي 3:11).

❦ ❦ ❦

هذا الهوس بالأنا هو احيانا هوس بالقبيلة. فقد ترى عائلتك اي انسباءك وحدة كاملة وترى الآخرين لا اشخاصا كل واحد منهم كامل ولكنك تراهم متراصين، عشيرة واحدة مع علمك لو انصفت ان كلا منهم مختلف العقل ومختلف في الفصيلة عن انسبائه ولكنك تستقوي بمن حولك بعدما احسست ان الوجود هو لأهل نسبك. عصبية الارحام هذه هي صميم التفاهة لانها صادرة من العدم. من ميراث القتال القبلي لما كنا في جاهلية العرب. يستحيل ادخالها اي فكر عقلي او اي رضاء الهي ولكنها تسير الناس بالمنطق نفسه الذي يلهم الاناوية الفردية. ونحن خلقنا اشخاصا احرارا من بطون امهاتنا ولم نخلق احجارا في خربة القبائل.

اية تكتلية تصل المرء الى عصبية مرضية هي من نوع الاناوية. ان تكون طائفيا – مذهبيا حتى الاستعلاء او الاعتداد بأمجاد مجموعتك ونكران امجاد الاخرين، ان تشعر بأن الحقيقة استغرقت كلها في جماعتك دون الاتصال والتعاون بمن هم ليسوا منها، كل هذا اناوية جماعية يهدد طاقات النفس ويبددها ويحجرها وهكذا تغلق نفسك عن جمالات المجموعات الدينية الاخرى او اهل اللغات الاخرى او الاعراق الاخرى.

رونق الحياة في المشاركة فقط، في تحسسك انك في حاجة الى الاخرين لتصير انسانا سويا. الانسانية مجتمع روحي اي تلاقي قلوب والقلوب متعاطفة او خانقة بعضها بعضا. وكما ان الله لطيف بك تعلم ان تكون باخوتك البشر لطيفا حتى اخر رمق فيك.

المطران جورج خضر